السياق والدلالة: مقاربة في التحليل المعرفي للخطاب

د. حسن برزيكو
hassan.berzigou@gmail.com
جامعة محمد الخامس بالرباط –المغرب–

تاريخ الإرسال: 08-06-2020 تاريخ القبول: 24-06-2020 تاريخ النشر:30-06-2020

الملخص:

لا عجب في أنّ معظم تساؤلاتنا عن المعنى تتمّ داخل مجال معيّن، مثلا ؛ نجد المعنى الأدبيّ أو المعنى التداوليّ أو المعنى اللغويّ أو المعنى الاصطلاحيّ...، ومن هنا تظهر الصعوبة في الإحاطة بالمعنى باعتباره معزولا عن الميدان الذي ينتمي إليه، أي أنه لا وجود لمعنى مستقل عن العالم، فالسياق يسم المعنى في مختلف العمليات التواصلية لاسيما وأن الكثير من المعاني تتغير دلالتها بتغير السياقات، فالتساؤل حول الحالة الصحية للمخاطب لا تدل في أغلب الحالات على الاهتمام الذي يكنه المتكلم للمخاطب بل قد يخرج ذلك إلى استلزامات حوارية متعددة الشيء الذي يفتح الباب لتأويلات لا نهائية تستحضر ما هو ثقافي واجتماعي وسياسي وغيرها من العناصر التي تتدخل في وسم المعنى.

الكلمات المفاتيح :

العلوم المعرفية ـ الذهن ـ السياق ـ الدلالة ـ المناسبة ـ التأويل ـ التلفظ ـ التبعية السياقية.

Abstract:

We know for sure that the meaning of many words changes depending on the context، for example we have the literary meaning، the philosophical meaning and other meanings which Takes its Significance from The situation of communication، which is formed from the circumstances surrounding the communication process، And theses transformations in the meaning make the door open toward infinite interpretation of the words، Especially when a bunch of elements are being recalled such as the culture and the religion and the politics and other elements getting involved in the Composition of meaning.

Key Words:
Sciences cognitive - mind-context- interpretation - contextual dependency Pronunciation - The occasion.

تمهيد:

عرف مفهوم تحليل الخطاب تحولات جذرية سواء على مستوى المتصور أو الممارسة، فقد كانت هذه العملية في الأصل عملية بلاغية إلى حين بدأ المد البنيوي النقدي في نزوعه الشكلاني والسيميولوجي في الاهتمام بالنصوص والخطابات من جهة التراكيب والبنى اللغوية المكونة للنصوص والخطابات، ونظرت إلى المظاهر البلاغية والأسلوبية المتمثلة في الانزياحات والتشبيهات وتقديم وتأخير وحذف وغير ذلك باعتبارها تنطوي في حقيقتها على تصورات متباينة، لتقوم بعد ذلك بالتفريق بين مجموعة من العمليات اللغوية الجوهرية كالحذف والفصل والوصل, وبين عمليات علائقية أخرى دون إهمال الأثر الذي يحدثه التلفظ على المتلقي وكيفية توجيه ذلك الاثر من طرفه.

تجاوز هذا التطور الملحوظ في عملية تحليل الخطاب الانغلاق البنيوي على البنى اللغوية المكونة لنص ما، لاسيما وأنها أهملت كل ما يتعلق بما هو خارج النص؛ من سياق أو حالات نفسية أو اقتصادية...، حيث اكتفت فقط بالنص ولا شيء غيره، ليظهر البعد التداولي في تحليل الخطاب، وذلك عبر تسليط الضوء على مجموعة من العناصر التي تتدخل في عملية التلفظ، فالسياق والحالات النفسية للمتكلمين والموضوع الذي بينهما وغير ذلك من العناصر الأخرى كلها تعمل على تكوين الصورة النهائية لعملية التخاطب، مما يجعل من إهمال أي عنصر من هذه العناصر أمرا مؤثرا على التأويل النهائي والتفسير الموضوعي للمعاني المطروحة، إلا أننا من خلال هذه الورقات نتجه لا إلى مقاربة السياق من بعده التداولي فقط ولكن من بعده المعرفي، هذا البعد الذي يتسم بتداخل مجموعة من الحقول المعرفية الأخرى من قبيل اللسانيات الإدراكية والتداوليات المعرفية والدلالة العرفانية وغيرها من ميادين البحث، وهذا بالإجمال يتطلب بحثا أكاديميا معمقا لمحاولة الإحاطة بجل هذه العناصر، لكن نروم خلال هذا البحث تقديم فكرة حول طبيعة المقاربة المعرفية في تحليل الخطاب من زاوية السياق والدلالة، أي ذلك التحول المعرفي الذي طرأ على تحليل الخطاب من هذين البعدين، إذ لم يعد استخراج السياق (الاجتماعية، الاقتصادي، السياسي، المكان، الزمان،...)كافيا

لتفسير مجموعة من التغيرات الدلالية التي تحدث على مستوى النص أو الخطاب، ذلك أننا نعلم أن السياق يسم الدلالة في جل الأحيان، لاسيما وأن طبيعة وخصائص ومعاني الألفاظ تتغير بتغير السياق، وعندما نقول السياق فإننا ندخل فيه ضمنيا السياق اللفظي والظروف الارجية المحيطة بعملية التلفظ، وسنحاول الإحاطة بكل مفهوم على حدة خلال السطور المقبلة.

بحسب رونالد لانغاكر فإن الرؤية الدلالية المعرفية للمعنى تعتبر مشتقا من التجربة البشرية ذات الطابع الجسدي، فالمعنى ينبثق بصفة دينامية في الخطاب والتفاعل الاجتماعي، ذلك أنه ليس شيئا ثابتا، خصوصا وأن المتحاورين يتفاوضون حول المعنى بفعالية استنادا إلى سياق فيزيائي، لغوي، اجتماعي، وثقافي، ومن هنا فالمعنى ليس مظاهر ثابتة أو ملازمة للخطاب الجماعي، ولكنه مظاهر تنتشر في ظروف حدث الخطاب التداولي، وفي العالم المحيط، وبالأخص، إنه ليس داخل ذهن متكلم واحد.

السياق:

ظهر السياق (contexte) كمفهوم أول ما ظهر مع الفلسفة التحليلية، ثم تطور نظريا مع الإنجليزي جون فيرث، فالاهتمام بالسياق باعتباره أداة اجرائية تولد من علم الدلالة اللغوي la sémantique linguistiques(آيت أوشن، 2000، صفحة 15)، ولابد من الإشارة إلى كون مفهوم السياق لا يتخذ فقط ذلك البعد الاجتماعي والثقافي (the context of situational)، أي المحيط العام الذي يجري فيه التواصل، ولكنه يتضمن أيضا السياق الشفوي (the verbal context) والذي يدل على الوحدات اللغوية وغير اللغوية التي تسبق أو تلحق علامة لغوية ما.

حاليا تجاوز الباحثون عملية التفريق بين هذه البعدين اللذان يتضمنهما السياق، فعلاوة على الوحدات اللغوية المكونة لعملية التلفظ أصبح يتضمن أيضا الظروف التي تحيط بعملية التواصل من زمان ومكان والأفعال اللفظية وغير اللفظية والهدف من العملية التواصلية... وغيرها من الملابسات الأخرى التي تحيط بعملية التواصل. والجدير بالذكر أن كلمة "السياق" استعملت مؤخرا في حقول معرفية مختلفة، إلا أن ستيفن أولمان يقول : "إن المعنى الوحيد الذي يهم مشكلتنا في الحقيقة هو معناها التقليدي، أي النظام اللفظي، وموقعها في ذلك النظام بأوسع معاني هذه العبارة" (أولمان، 1973، صفحة 57)، كما أشار أولمان كذلك إلى ضرورة الفصل بين اللغة والكلام، على اعتبار أن الكلام هو الذي يخضع ويتغير بحسب السياقات المختلفة وليس اللغة، ما نريد أن نشير إليه هو أن السياق لابد أن يتضمن البعد المقامي والمقالي معا أثناء عملية التحليل، فإقصاء أحدهما إنما هو من باب الصعوبة، وأي بحث عن المعنى في ظل إقصاء لهذين

البعدين يدخل في باب التأويل الذي يفتقد لأسسه وضوابطه العلمية، دون أن ننسى خطورة الاعتماد فقط على المكون التركيبي في عملية الانتاج والتقبل في استعمال اللغة، فالمعنى عند العرفانيين تجاوز ما هو معجمي ليصبح عملية فكرية، فالمعاني تتشكل في الذهن عبر آلية المفهمة conceptualization، حيث يتدخل الإدراك والتجربة الجسدية، على اعتبار أن المفهوم يساوي التعابير اللفظية، خصوصا وأن المفاهيم تنطبق على مختلف المقولات التي نعاينها في التجربة؛ أكانت هذه المقولات مادية كالشجرة، البناء، الأرض...، أو مجردة كالحزن والتصوف وغيرها، أو حتى ما يتعلق بالأفراد مثل الرئيس أو الشريك أو القاتل، أو ما يتعلق بأسماء الأعلام مثل الزعيم النازي مثلا...

من هنا نشير إلى كون المعنى تجاوز البنية التركيبية والظروف الاجتماعية، حتي يتضمن عوامل الإدراك والتجربة الجسدية وغيرها من العناصر التي تتدخل في عملية الفهم بشكل يجمع بين مجموعة من العناصر اللغوية وغير اللغوية والعمليات المعرفية باعتبارها مركز الفهم وسوء الفهم الذي يحدث لدى المخاطَب، وهذ ما سنحاول قدر الإمكان الإجابة عنه في حدود موضوع البحث.

I. المقاربة التداولية المعرفية للسياق والدلالة:

1. السياق في الدراسات البنيوية والتداولية الكلاسيكية :

ظهر الاهتمام بالسياق ودوره في تشكيل الدلالة منذ أمد بعيد، حيث يعتبر مكونا محوريا في ما يتعلق بتفسير اللغة وتأويلها واستخراج معانيها وغير ذلك، فالقدماء علموا أن اللغة هي تعبير عن الأفكار والأطروحات والمواقف ضمن سياق محدد، فالتفاسير القرآنية باختلافاتها ركزت على مكون السياق الذي يترجم ب"أسباب النزول"، أي أن هذه الأسباب المؤطرة لنزول الوحي على الرسول صلى الله عيله وسلم وباقي الظروف الاجتماعية المحيطة لها دور كبير في تفسير معانى الآيات القرآنية واكتشاف أحكامها، إلا أن ما يثير الاستغراب هو تلك الانعطافة البنيوية مع دي سوسير وتلامذته حينما أخرجوا السياق عن دراسة اللغة، على اعتبار أن المعنى يكمن داخل الألفاظ والتراكيب والأصوات اللغوية فقط، فاتجهوا إلى إقصاء الظروف المحيطة بعميلة إنتاج النص الأدبي، وما يفسر ذلك هو تشبعهم بالنزعة الوضعية التجريبية في الفلسفة واتجهوا إلى نقل هذا المنهج العلمي إلى اللسانيات، فهذه الفلسفة ترتكز على وضع مجموعة من المناهج والعناصر العلمية التي تمكننا من بناء نظرية علمية تسعفنا في تفسير الظواهر العلمية، وما يميز هذه

العناصر المكونة لهذه النظرية هو الثبات. فالسياق ليس ثابتا، فهو عنصر متغير بتغير أماكن وأزمنة العملية التواصلية، وتختلف قوة الكلمات من شخص إلى آخر، كل هذا أدى بالبنيويين إلى إهمال عنصر السياق، ففي نظرهم يكفي تتبع العلاقة الموجودة بين الوحدات الصوتية التي تشكل الكلمة ثم دراسة العلاقة التي تجمع كلمة بأخرى في عملية تشكيل الجملة ثم دراسة هذه البنية التركيبية العامة للجملة، فهذه العملية كفيلة في نظرهم من أجل إدراك المعاني وتحديد المرتكزات الأساسية للغة.

اصطدم البنيويون من بعد بمجموعة من الصعوبات التي لا يمكن تفسير انطلاقا من هذه النزعة الوضعية، إذ وجدوا أن اللغة تتكون من مجموعة من المترادفات إلى جانب ظاهرة الاشتراك اللفظي مما يجعل اللساني أمام تعدد الدلالات ضمن نفس الظاهرة اللغوية، إلى جانب كون المخاطب لا يقول دائما ما يقصده ولا يقصد دائما ما يقوله، وقد أدركوا عجزهم عن تفسير جميع الظواهر اللغوية، مما اضطر بعضهم إلى إعادة الاعتبار لمكون السياق في العملية التواصلية ك : بنفنست وياكبسون وليونز وغيرهم، إلا أن السياق في المراحل الأولى لم يشمل الظروف الاجتماعية التي أحاطت بتكوين الخطاب، ولكن كان يقصد بالسياق ما هو لغوي؛ أي تلك الوحدات اللاحقة والسابقة لوحدات معينة، مما أعاد الاعتبار شيئا ما إلى السياق في فهم اللغة وفي تفسير مجموعة من الظواهر كالتي ذكرناها آنفا، بظهور التداولية (التداولية الكلاسيكية) أصبح السياق ذو وظيفة أساسية في العملية التبليغية وعنصر لا يمكن الاستغناء عنه في أي حال من الأحوال خصوصا إذا استذكرنا تعريف التداولية باعتبارها دراسة اللغة في الاستعمال، مما يجعل من هذا الاستعمال موسوما بمجموعة من الخصائص الزمكانية والشخصية للمتكلم التي تظهر على مستوى الخطاب، مما يجعل من فهم السياق فهما لنصف المعنى، إلا أن ما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه التداولية الكلاسيكية ليست معرفية، إذ إن العمليات المعرفية عامة والعمليات الذهنية شبه مغيبة إن لم نقل مغيبة تماما لاسيما نظرية الأعمال اللغوية مع أوستن وسيرل في بدايتها، يقول موشلار : "إن التداولية المنبثقة من نظرية الأعمال اللغوية لا تبدو لنا إطلاقا نظرية معرفية، فهي في بعض الوجوه أقرب إلى السلوكية منها إلى العلوم المعرفية، وما يفصلها عن السلوكية أنها تقر بوجود الحالات الذهنية، إذ ليست المقاصد المعبر عنها في نظرية الأعمال اللغوية سوى الحالات الذهنية، إلا أن القرب المعلن عنه بين الحالات الذهنية (المقاصد) والجمل التي لا تعبر عنها بصفة تواضعية (الأعمال اللغوية) يجعل الحالات الذهنية شفافة إلى حد ما"، (موشلار جاك، 2003، صفحة 43).

أي ما يجعل هذه النظرية ـ لاسيما مع سيرل Searle ـ تنفصل شيئا ما عن النزعة السلوكية هو إقرارها بمجموعة من المبادئ أهمها المقاصد الذهنية للمتكلمين (فكرة، رغبة، إحساس،)، التي يمكن التعبير عنها بصدق وبشكل حرفي، وتؤكد على كون كل الحالات الذهنية قابلة لأن تترجم إلى سلوك لغوي، مما يمكن من ملاحظة هذه الحالات الذهنية ودراستها انطلاقا من اللغة، وهذا ما يجعلها قريبة من السلوكية منها إلى العلوم المعرفية، وهذه الحالات الذهنية هو ما قاد Searle إلى اقتراح مبدأ الإبانة، على اعتبار أن الحالات الذهنية قابلة لأن تتحول إلى لغة واضحة مباشرة.

استندت التداولية في بداياتها بشكل كبير على المقاربة الترميزية الصورية للغة، إذ لم تترك هذه المقاربة المساحة المطلوبة للعمليات الاستدلالية عند اعتبارها التأويل بكونه عملية شفافة (موشلار جاك، 2003، صفحة 49)، إن هذه التداولية تطورت بشكل كبير ضمن النظام الترميزي الصوري، لاسيما نظرية الأعمال اللغوية، ولم تستوعب هذا البعد التأويل ضمن العمليات الاستدلالية في اللغة، وقد استعانت أحيانا بالمعرفة المشتركة في تفسير بعض العمليات الاستدلالية وهو الأمر نفسه الذي يعيدنا إلى النظام الترميزي مرة أخرى، من هنا نخلص إلى كون هذه التداولية ليست ذات طابع معرفي، وليست هدفنا خلال هذه الورقات، وما نحاول الإحاطة به هو السياق ضمن الدراسات التداولية المعرفية، إذ لم يعد السياق هنا فقط تلك الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ،،، التي تتحكم في كلام المتخاطبين، بل تعدى ذلك إلى العمليات المعرفية العليا كالذاكرة (خصوصا طويلة المدى) والانتباه، إضافة إلى المعرفة الموسوعية للمتكلم، مع الإحاطة بالنظام المركزي والأنظمة الخاصة، هذه المصطلحات كانت نتاج علماء الأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الأعصاب واللسانيات المعرفية الشيء الذي ساهم في تكوين ما يسمى ب"التداوليات المعرفية".

وما نريد الإشارة إليه أيضا هو كون السياق ينقسم لمجموعة من السياقات المتنوعة، وهذا التنوع ليس فقط من أجل التنوع ولكن يكشف أنواع تداولية أخرى داخل الخطاب، إذ نجد السياق النصي، السياق الوجودي، السياق النفسي، سياق الفعل،،، وغيرها من السياقات الأخرى، التي تعمل على الفصل بين ما يتصل باللغة وبين ما يتصل بتشكيل هذه اللغة داخل الخطاب.

2. الـعـلـوم والـتـداولـيـات المعرفـيـة وطرق اشتغال الذهن:

تشتغل العلوم المعرفية بكل تفرعاتها واختصاصاتها بالذهن البشري، فعندما نقول علوم معرفية فهي بالأساس علوم الذهن، حيث تسعى إلى فهم مجموعة من العمليات الذهنية والمعرفية؛ من إدراك، وتفكير، وفهم للغة، والتعلم والاكتساب، وغيرها من الظواهر الأخرى، الشي الذي يفسر تنوع وتشعب هذا الميدان واختلاف مجموعة من التخصصات التي تقارب عمل الذهن البشري، لاسيما وأن العلوم المعرفية تجمع داخل طياتها مجموعة من التخصصات التي تتضافر من أجل تكوين منهج علمي دقيق، إذ نجد علوم الأعصاب وعلم النفس والذكاء الاصطناعي واللسانيات والرياضيات التطبيقية والفلسفة والمنطق وفلسفة الذهن والأنثروبولوجيا ،،، وغيرها من التخصصات الأخرى التي توحدها مجموعة من الفرضيات المتعلقة بطبيعة المعرفة.

"يعتبر العلماء المعرفيون الذهن البشري نسقا معقدا يتلقى المعلومات ويخزنها ويستعيدها ويحولها وينقلها، في إطار ما يسمى بسيرورات معالجة المعلومات، ويمكن دراستها باعتبارها نماذج وأمثلة معالجة لهذه النماذج؛ لننظر إلى مجال الرياضيات ولنتفحص عملية الضرب، اعتمادا على مجموعة من القواعد (تسمى غالبا خوارزميات)، ويسمى الخوارزم أحيانا إجراء صوريا أو نسقا، لأنه يعرف من خلال صورة الرموز وليس من خلال معانيها... . فرغم أن القواعد محدودة، فإنها تسمح بعملية ضرب بين أي عددين، هذا يعني أنها تتنبأ بلا نهائية النتائج، تظهر الخوارزميات أن سلوكاتنا اللانهائية نقوم بها اعتمادا على نسق نهائي، ،،" (لايكوف و جونسون ، 2016، صفحة 18 19)، هذا مثال بسيط على طريقة اشتغال العلوم المعرفية فيما يخص الترميز والصورنة، على اعتبار أنها تستمد مجموعة من المناهج من تخصصات معرفية أخرى.

ما نرغب في التأكيد عليه هو أن مصطلح "المعرفية" لم يعد يستخدم للدلالة على دراسة السيرورات التي تحدث أثناء معالجة المعلومات فقط، تلك التي تسمى بالسيرورات العليا كالتفكير والذاكرة والانتباه والوظائف التنفيدية الأخرى، بل أصبح يشمل أيضا السيرورات الأولية مثل الأحاسيس والإدراك والإنفعال والحركات وغيرها مما يجعل من العلوم المعرفية تشمل كل المعالجات الذهنية الذكية، أي ما يشمل طرق معالجة المعلومات عند الحيوانات وعند الحواسيب أيضا.

إن الذي كان السبب في اعتبار الدماغ يتكون من مجموعة من المناطق والباحات التي تسند إليه كل ملكة أو قدرة يمتلكها الكائن البشري هو الألماني البيولوجي العصبي جوزيف غال (1757 ـ 1828)، حينما

أكد أول الأول الأمر على كون الدماغ البشري ينقسم لعدة مناطق كل منطقة تعمل بكيفية محددة وتتحكم في عمليات ما، هذه النظرية كما هو معلوم لم تلق الاستحسان المطلوب أنداك، إلا أن الفضل يعود للأمريكي جيري فودور (1983) الذي أعاد صياغة مجموعة من العناصر على طريقة غال، إلا أن ما يميزه هو العلمية والدقة، فقد أشار إلى كون الدماغ البشري يتكون من ثلاثة أنظمة متسلسلة، وهي مستقلة عن بعضها البعض ويتعلق الأمر ب : الإدراك، الإحساس، الحركة والذاكرة، وتتلخص هذه الأنظمة المتنوعة في عملية استقبال المعلومات من العالم الخارجي، فعندما تستقبل المستقبلات الحسية أي نوع من المعلومات، سواء عن طريق الشم أو اللمس أو البصر أو غيرها تنتقل هذه المعلومات عبر سيرورة عصبية نحو الدماغ وتحديدا نحو المنطقة المسؤولة عن هذا المستقبل الحسي حتى يتم تحديد هوية هذه المعلومة، حتى تنتقل هذه المعلومات إلى الأنظمة الخاصة بتفسيرها وتحديد أصنافها، فالنسبة للغة يمكن أن نقول إن النظام الخاص بمعالجة اللغة هو الذي يتكلف بتقسيم العلامات اللغوية بشكل بنيوي يتم خلال هذه العملية تحديد الألفاظ والعبارات والعلاقات النحوية والمنطقية الموجودة بينها، ثم بعد هذا التحديد تنتقل المعلومات اللغوية إلى النظام المركزي، باعتباره الكفيل في عملية التأويل التداولي بكل ما يتعلق باللغة.

وبربط التداولية بهذه العمليات المعرفية، يقول **يول** في إطار عمل المنهج التداولي : "يدرس هذا المنهاج أيضا الكيفية التي يصوغ بها من خلالها المستمعون استدلالات حول ما يقال للوصول إلى تفسير المعنى الذي يقصده المتكلم، ويبحث نوع الدراسة هذا في كيفية إدراك قدر كبير مما يتم قوله على أنه جزء صغير مما يتم إيصاله،" (يول ، 2010، صفحة 19).

تعتبر الحياة الذهنية عند البشر غنية جدا لما تحتويه من تجارب شعورية وحسية، فنحن نصدر مجموعة من الأحكام حول أشياء متنوعة، أحكام قيمة حول مجموعة من العناصر المجردة والحسية كالحب والصعوبة والطمأنينة والسياسة ،،، كما نملك أيضا تجارب ذاتية حول الرغبة والتعلق والغضب والحميمية،،، وغيرها من التجارب الغنية جدا، فالطريقة التي نبني بها تصوراتنا ومعتقداتنا ومواقفنا لا تنبع فقط من هذه التجارب الذاتية بل تكون مستمدة من مجالات أخرى قد تكون ذات طبيعة حسية أو حركية أو كلاهما معا، إذ تتيح لنا مجموعة من الآليات الذهنية تصوير العالم وتكوين تمثلات حول طبيعة الشيء، ففي التصوير الذهني للعالم الذي كوناه بشكل ذاتي قد نلجأ إلى الاستعارة مثلا، فالاستعارة تمكننا من تجاوز ما يتعلق بالتجربة الحسية الحركية التي قد نعيشها في الواقع، "تتيح الاستعارة للتصوير الذهني المتواضع عليه الموجود

في المجالات الحسية الحركية أن يستخدم في مجالات التجربة الذاتية، مثلا، قد نكون صورة عن شيء يتجاوزنا أو يحلق فوق رؤوسنا (تجربة حسية حركية) عندما نفشل في الفهم (تجربة ذاتية) ، فإيماءة ترسم مسار شيء يتجاوزنا أو يمر فوق رؤوسنا قد تشير إلى الإخفاق في الفهم، ،،، الاستعارة التصورية تعم كلا من الفكر واللغة، من الصعب أن نجد تجربة ذاتية مشتركة ليست متصورة تواضعيا من خلال الاستعارة، ،،" (لايكوف و جونسون ، 2016، صفحة 89)

الأمر يزداد صعوبة عندما نتساءل عن الضعف الذي يمس هذا الاستعارة التصورية في الكثير من الأحيان، عندما تفشل في نقل التجربة الذاتية للمتكلم، حينما يعتقد أن الطرف الآخر يشترك معه في نفس التصور التواضعي الذي كونه من خلال الاستعارة، فهل الاستعارة تعمل بنفس الطريقة عند البشر؟ أو بالأحرى هل التصور هو نفسه عند من عاش نفس التجربة الحسية الحركية ؟؟، هذا صعب خصوصا وأن هذه العملية تدخل ضمن العناصر التي لا يمكن ترميزها، وهنا تتدخل التداولية في بعدها المعرفي فيما يتعلق بالتأويل، تأويل هذه التصورات الذهنية التي يعمد المتكلم إلى توضيحها للمخاطب.

هناك من يقول أن من بين اكتشافات العلوم المعرفية نجد أنه رغم كون تنوع اللغات الطبيعية اختلافها إلا أن الأنساق التصورية المستعملة داخل هذه اللغات ترتكز على عدد محدود من الصور القاعدية، رغم المساحة الشاسعة التي يغطيها نطاق العلاقات الفضائية التي يمكن بناؤها من خلال هذه الخطاطات التصورية، وهذا الأمر يقودنا بشكل مباشر إلى مفهوم الجسدنة، باعتبار التجربة الجسدية تعطي بعدا آخر لهذه الخطاطات الفضائية فلولا الجسد ما وجدت كل هذه المفاهيم التي نمتلكها، فالإدراك ينظر إليه دائما على أنه جسدي بطبيعته "فالجسدنة جملة من الآليات العصبية والعرفانية التي تمكننا من الإدراك ومن التنقل في ما يحيط بنا، وهي الآليات نفسها التي تنشئ أنظمتنا المفهومية وطرق التفكير عندنا. ومن الأبعاد ما تجري فيه الجسدنة على زاوية النظر الذاتية التي من خلالها تتأسس الرؤية الشخصية الفردية الذاتية، وفي ذلك خروج عن المألوف القائم على رؤية عامة ومعرفة شاملة موضوعية موقعها زاوية نظر محايدة ترى منها الذات ولا ترى،" (الزناد، صفحة 190). من هنا نقول أن المفاهيم والأفكار بشكل خاص أو الصورة الذهنية بشكل عام تتأسس على مجموعة من العناصر التي تكونها، كالجهاز الحركي، والإدراك الجشطلتي، والتخييل الذهني، كلها تنصهر في النسق البصري للدماغ، فما يمكن أن نستنتجه هو أن الخصائص الفعلية لهذه

التصورات الذهنية تكون ناتجة عن طبيعة العلاقة الرابطة بين الذهن والجسد، وعن طبيعة العلاقة بين الأشخاص والعالم الحسي.

فاللغة هنا هي تصور لما يدركه المتكلم ولما يحسه ،أو بالأحرى ما عاشه من خلال تجاربه الحسية ـ الحركية وطرق إدراكه للعالم، فاللغة هي عملية عصبية بيولوجية خاضعة لمجموعة من المتغيرات، أبرزها السياق، باعتباره غير ثابت، إضافة إلى كون اللغة في أساسها نشاط يخضع لمجموعة من الاضطرابات البيولوجية، كما تحيط به ظروف اجتماعية وفيزيائية وعصبية غير متناهية، فاللغة في أصلها ليست ملكة مستقلة، بل متصلة بباقي العليات المعرفية الأخرى، بل تكشف عنها أيضا، لاسيما وأن العمليات الرمزية تشكل أساس اللغة.

إن ما نبحث عنه هو تلك العلاقة بين البنية التصورية للإنسان والعالم الخارجي للتجربة الحسية ـ الحركية، فأصحاب الدلالة المعرفية مثلا إلى اكتشاف طبيعة التفاعل بين البشر وبين العالم الخارجي وطرق الوعي به في سبيل بناء نظرية للبنية التصورية تنسجم وطرق اكتشاف البشر للعالم، وإحدى الأفكار التي تولدت من محاولة تفسير هذا التنظيم التصوري المتأسس على التفاعل مع العالم الخارجي نجده يتعلق بأطروحة المعرفة المتجسدة (الجسدنة)، على اعتبار أن التنظيم التصوري ناتج عن التجربة الجسدية.

3. السياق والتحليل المعرفي للخطاب:

إن الارتكاز على مفهوم السياق أثناء تحليل الخطاب في ظل العلوم المعرفية يحيلنا إلى تسليط الضوء على التغيرات التي حدثت على مستوى المفهوم، إذ لم يعد السياق يتشكل فقط من تلك الظروف الخارجية التي تحيط بالعملية التبليغية، إذ إنه (حسب سبيربر) يتشكل من المعارف الموسوعية المكتسبة من خلال التجارب والأحداث المتنوعة، وذلك بفضل العمليات الاستنباطية، إضافة إلى البنية المنطقية للمعلومات التي تم إدراكها واستيعابها خلال العملية التواصلية، وهذه المعلومات نستقيها من خلال البيئة أولا ثم مما عرفناه سابقا. وبالتالي فالسياق يبنى بشكل تدريجي؛ يدخل فيه ما هو مدرك في البنية التصورية للإنسان وما يتم قوله خلال العملية التواصلية، مما يجعل السياق في تغير وتحول دائمين مما يجعل معرفتنا حول الأشياء

والأشخاص غير ثابتة، لاسيما وأن دلالة الكلمات في حد ذاتها ليست ثابتة أيضا، فكل هذه العناصر تصبح جزءا من الذاكرة التي هي أساس تأويل ما يتم قوله وما يتم تبليغه.

"إن تأويل الملفوظات يتم عن طريق عمليات استنباطية، مقدماتها الشكل المنطقي للملفوظات بإضافة معلومات الأشكال المنطقية والمعطيات المستقاة مباشرة من المحيط الفيزيائي ومن المعطيات التي تمخضت عن تأويل الملفوظات السابقة، هذه المعطيات كلها يسميها موشلر وروبول "المحيط الذهني والمعرفي"، فالسياق، في هذا الإطار، هو جزء صغير من المحيط الذهني أو المعرفي للفرد في فترة معينة " (بلخير، 2013، صفحة 117).

يتعدد السياق بتعدد الملفوظات التي تتدخل في بنائه، إذ إن مفهوم الشكل المنطقي له بعد محوري في تحديد طبيعة السياق ومفهومه، حيث إن البنية المنطقي تشكل عناوين لمجموعة من المفاهيم التي تترسخ في الذاكرة العاملة، وتسمح هذه العناوين بإيجاد المعلومات المتضمنة بدورها في المفهوم ،ثم تنتظم هذه المعلومات حسب طبيعة المعلومات التي تم التقاطها، حيث نجد (بلخير، 2013، صفحة 117) :

- المدخل المنطقي: يقوم بجمع المعلومات حول العلاقات المنطقية التي تربط مفهوما بمفاهيم أخرى؛ الاستلزام، التناقض.
- المدخل الموسوعي: يقوم بجمع المعلومات المحتواة في المواضيع المناسبة للمفاهيم.
- الوحدة المعجمي: تقوم بجمع مقابلات المفاهيم في لغة أو أكثر من اللغات.

إن عنوان المفهوم يسمح لنا بالولوج إلى المعلومات التي يحتويها الشكل المنطقي، أما المعلومات التي من شأنها أن تشكل السياق فهي مستقاة من المدخل الموسوعي، وفي حال تشكل السياق عن طريق المعلومات الخاصة بالمحيط المدرك ونتائج تأويل الملفوظات السابقة، يضاف إليه الشكل المنطقي للملفوظ ليشكل مقدمة لتأويلات لاحقة، فتجرى عمليات الاستنباط الضرورية للخروج بخلاصة أو مجموعة من الخلاصات التي تساهم في إثراء تأويل الملفوظ.

من هنا نؤكد على كون البنية الدلالية هي بنية تصورية في الأساس: فاللغة تحيل على تصورات موجودة في ذهن المتخاطبين ولا تقتصر على الإحالة على العالم الخارجي، "افترض أن شخصا ما يشير بإصبعه وينطق في الوقت ذاته : لقد استريت تلك بالأمس، ماذا ينبغي أن يفعل السامع كي يفهم المتحدث تمام الفهم ؟ ينبغي بالطبع أن يفهم الكلمات والبنية النظمية وأن يكون قادرا على استعمال قواعد التطابق التي

يشملها تأويل الجملة؛ ولكن ينبغي عليه أيضا أن يؤول كلمة <تلك>، وفي هذا الملفوظ <تلك> هي عينة عما سمي العائدة التداولية، وينبغي على السامع، كي يؤول الضمير الإشاري الموجه <تلك> أن يتبين الإحالة المقصودة شيئا ما الكائن في المحال البصري، وقد يكون ذلك بمساعدة حركة إشارة من المتكلم، ،،، ينبغي كي نتمكن من فهم الضمير الإشاري الموجه تداوليا أن تظهر إحالته المقصودة ككيان مسقط بالنسبة إلى السامع، كي يظهر ذلك الكيان أن يؤسس انطلاقا من مجاله البصري عبارة قابلة للإسقاط في مستوى البنية التصورية، ذاك المستوى الذي تتلاءم فيه المعلومة المرئية والمعلومة اللغوية، ثمة إذن رابط مهم بين إدراك الشيء واستعمال العائدة التداولية،" (جاكندوف، 1983، صفحة 111 112).

إن كيانات الإدرام البصري من قبيل الشكل أو الأشياء تدل في عملية إدراك الدلالة واستيعابها، وهناك أيضا أصناف أخرى من الكيانات التي شكلت موضوعات متعددة في أبحاث الإدراك البصري، وما نريد الإشارة إليه هو أن ثمة عوائد تداولية مختلفة جدا على المستوى النحوي منها مثلا: مركب ظرفي إسنادي، حال يفيد الظرف، ،،، وغيرها من العوائد التداولية التي يدخل فيها ما هو بصري وما هو لغوي، أي استخدام مجوعة من الإشاريات في مكان وزمان معينين بحسب السياق التداولي.

إذا كان الهدف في الدراسات المعرفية تتبع العمليات الذهنية في إنتاج الدلالة فإن الدراسات التداولية تهتم بالسياق في إنتاج المعنى، فسبيربر وويلسون يعتبران أن الأثر السياقي بمثابة أثر عرفاني، إذ إنه لا قيمة للسياق في ذاته, بل فيما يستتبعه من تحولات على مستوى البنية التصورية للفرد؛ "فالآثار السياقية في الفرد هي الآثار العرفانية... إنها التغيرات في معتقدات الفرد... . دعونا نعرف الأثر العرفاني بادئ ذي بدئ بأنه أثر سياقي يحدث في نظام عرفاني (على سبيل مثال الفرد) (Dan Sperber, Deirdre Wilson, 1986)

إن ظهور التداولية المعرفية خصوصا نظرية المناسبة عند غرايس أدى إلى ظهور اتجاه مختلف، ذلك أن فالتداولية أصبحت هي: قدرةٌ للعقل، وضرب من ضروب أنظمة معالجة المعلومات، وهي نظامٌ لتفسير ظاهرة معيّنة في العالم، ألا وهي السلوك التواصلي البشري، إنها موضوعٌ مناسب للدراسة في حدّ ذاته، لم يعد يُنظر إلى التداولية على أنها مجرّد ملحق بعلم دلالة اللغة الطبيعية، وضمن هذا الإطار العرفاني – العلمي، يكون هذا النوع من النظريات التداولية مسؤولً عن توفير مصادر للأدلّة ولمعايير الملاءمة تختلف تمام الاختلاف عن نظيرتها الخاصّة بأيّ مقاصد فلسفية)تكمن وراءها؟

والتداولية كذلك نظامٌ لفهم السلوك التواصلي؛ أي للتعرف إلى ما يحاول منتج السلوك الظاهر التواصل في شأنه.

فخلال مقاربة الخطاب من البعد التداولي لابد أن نأخذ بعين الاعتبار التغيرات الدلالية والسياقية معا أي البنية التصورية للفرد ما قبل العملية التبليغية التي هو في صددها وتلك التغيرات الدلالية التي تحدث في صلب العملية التواصلية فلابد من الربط بين الدلالة العرفانية وبين التداوليات، إذ يشكل مفهوما السياق والملائمة أبعاد مهمة في عملية الإحاطة بمجموعة من الملفوظات التي يحتويها الخطاب، فلفهم مجموعة من الإشاريات مثلا لابد من الاخذ بعين الاعتبار المجال البصري المدرك من قبل الفرد، دون أن ننسر الربط بين هذه الإشاريات وبين المتكلم، إذ نربط عملية التلفظ بشكل مباشر بالمتكلم باعتباره المسؤول عن مجموعة من التغيرات الدلالية التي تحدث على مستوى الخطاب.

دون أن ننسى نظرية المعرفة المشتركة التي تشكل بعدا محوريا في بناء الخطاب مع الآخر، تقوم هذه النظرية على فكرة أساسية مفادها أن المتخاطبين يتوصلون إلى أن يكون لهم لغة مشتركة ومقدمات مشتركة، يطبقون عليها قواعد الاستدلال المتطابقة فيما بينهم، ولكن هذا النموذج أيضا قاصر عن تفسير عملية التواصل، ذلك أن أعضاء المجموعة اللسانية نفسها، وإن كانوا يشتركون أو يتقاربون من حيث القدرات اللسانية والاستدلالية، فإنهم بالمقابل يختلفون في فرضياتهم حول العالم ، ذلك أن الاختلاف في تجارب الحياة، ينتج معارف مختلفة، (Dan sperber, 1989 , p. 31 32)، فليس هناك أي حاجة إلى اقتراح لجعل المعارف المشتركة تنتمي إلى السياق، وسيكون هذا القيد ضروريا إذا أمكن افتراض أن نجاح عملية التواصل مضمونة في كل الاحوال، ويمكن أن نشكك في هذه الفرضية، خصوصا كما تفعل التداولية. يمكن أن نستخدم نموذج الاستدلال ليكون مكملا لنموذج الشفرة، لشرح التواصل اللفظي، فالرجوع إلى الاعتماد على نموذج الاستدلال يعني بطريقة غير مباشرة أن نجاح عملية التواصل لا يمكن ضمانها بنسبة مئة بالمئة: فالمخاطَب يكون مجموعة من الافتراضات بشأن ما يريد المتكلم أن يبلغه، فإن وافق كلام المتكلم هذه الافتراضات التي يكونها المخاطب فحينئذ ستكون العملية التواصلية ناجحة، في حين ستفشل إذا لم تتطابق أقوال المتكلم مع الافتراضات التي يكونها المخاطب.

"إن البشر جميعا يعيشون في العالم المادي نفسه، ونحن جميعا منهمكون بمشروع يستغرق أعمارنا من أجل الحصول على معلومات من هذه البيئة العامة وتكوين أفضل تمثيل أو تصور عقلي لها، لكننا لا نكون التمثيل أو التصور نفسه بسبب الاختلاف في محيطنا المادي الضيق من ناحية، وفي قدراتنا الإدراكية والمعرفية من ناحية أخرى،" (Dan Sperber, Deirdre Wilson, 1986, p. 61). فالقدرات الإدراكية كما القدرات الاستدلالية تختلف خصائصها وطرق اشتغالها من شخص لآخر، وهذا يؤدي إلى اختلاف فاعليتها من شص لآخر، فمعلوم أن الناس يتكلمون لغات مختلفة وهذا يمكنهم من إتقان مجموعة من المفاهيم المتنوعة، وهذا يؤدي بهم إلى تكوين تمثلات وتصورات مختلفة أيضا تمكنهم من القيام باستدلالات مختلفة، دون أن ننظر إلى الاختلاف الحاصل أيضا على مستوى الذاكرة والاختلافات الموجودة بين شخص وآخر، وغيرها من العمليات المعرفية الأخرى، ومن هنا فرغم اشتراكهم في المحيط المادي نفسه إلا أن البيئة الإدراكية المعرفية تختلف من شخص لآخر. فالبيئة الإدراكية المقصود به كل الافتراضات والاحتمالات التي تكون في متناول الفرد أثناء العملية التواصلية، فهي افتراضات محددة من المفترض أن يقوم الشخص بتجميعها ومعالجتها دون غيرها من الافتراضات الأخرى، ولكن الأهم هو التساؤل عن أي هذه الافتراضات بالذات سيقوم الشخص بتركيبها ومعالجتها دون غيرها؟: "إن بعض المعلومات قديمة، فهي موجودة أصلا في تمثيل أو تصور الشخص للعالم، وما لم تبرز الحاجة لها لإنجاز مهمة إدراكية معينة، ما لم يكن الوصول إليها من المحيط أسهل من الوصول إليها من الذاكرة، وهناك معلومات جديدة مرتبطة بالمعلومات القديمة، وحين تستعمل هذه المعلومات المترابطة القديمة والجديدة مجتمعة كمقدمات منطقية في عملية استدلال، يمكن أن نستنتج معلومات جديدة إضافية: معلومات ل بالإمكان استنتاجها بدون هذا الربط بين المقدمات القديمة والجديدة، وحين تؤدي معالجة المعلومات الجديدة إلى مثل هذه المضاعفة في الأثر ،إلا أننا نصفها بكونها مناسبة أو ذات صلة،" (ويلسون و سبيربر، 2016، صفحة 96)، والمناسبة أو الصلة إنما تكون بالسياق، فالسياق يكون المعيار في عملية استحضار معلومات أو تهميش أخرى، فتكون الافتراضات مناسبة وذات صلة للفرد خلال وقت محدد وفقط إذا كان مناسبا، وذات صلة في سياق أو أكثر من السياقات المتاحة لذلك الشخص خلال ذلك الوقت.

خاتمة:

انطلق التفكير في هذا البعد المعرفي من الاستعمال اللغوي من ملاحظة أن الدلالات اللغوية تتأثر بشروط استخدام اللغة، وهي شروط مقننة ومتحققة في اللغة، كالأمثلة التي قدمها الكاتب في مقالته؛ والتي تتضمن ظروفا و أحولا وروابط..., والتي لا يمكن فهم دلالتها إلا بالعودة إلى العمل اللغوي الذي تصفه وتعدله، وليس إلى محتوى الجملة التي تظهر فيها، ولقد قادت تحاليل العبارات اللغوية التي تناولت الأفعال الإنشائية إلى الفرضية التي تعتبر أن دلالات هذه الكلمات (المعجمية أو النحوية) تتضمن تعليمات حول الكيفية التي ينبغي لها ان تستعمل في الخطاب.

مع ذلك، وبصرف النظر عن هذه المعطيات اللسانية ذات الطابع التداولي، واجهت اللسانيات صعوبات جمة في معالجة مجموعة من العناصر الأساسية فيما يتعلق باستعمال اللغة؛ بداية من الضمائر ، والأزمنة،

ذلك في الوصف الذي اقترحه بنفنست، والذي يشمل الأبعاد التلفظية؛ كالذاتية، والضمائرية بالنسبة للضمائر، وخطط التلفظ كالخطاب والتاريخ... .

فالمميزات الرئيسية لمجموعة من التعبيرات بمثابة المتغيرات التي تعتمد قيمتها على استخدامها في موقع معين، بمعنى أن هذه التعبيرات تتميز بخاصية التغير وعدم الثبات، ويعتمد فهمها وتأويلها على خصوصيات استعمالها، والظروف المحيطة بعملية التلفظ، فأي متكلم يستخدم الضمير "أنا"، يحدد نفسه بالقول " أنا " ، فالجملة في الوقت الحاضر ـ في كليتها ـ تصف حدثا مرتجلا وقت تلفظه، باعتبار الضمائر علامات حدوثية، تربط كل ما جاء في العبارة بالمتكلم وسياق تلفظه.

* Bibliographie

* Sperber Dan Sperber، Deirdre Wilson، (1986)، *Postface to the Second Edition of Relevance: Communication and Cognition*، Oxford: Blackwel،

* Dan sperber، d، W، (1989)، *La pertinence، communication et cognition* ، les Editions de minuit،

* الزناد الأزهر، (بلا تاريخ)، *نظريات لسانية عرفنية* ، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلو ناشرون،

* لايكوف جورج ، و جونسون مارك ، (2016)، *الفلسفة في الجسد: الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي*، (عبد المجيد جحفة، المترجمون) بنغازي، ليبيا : دار الكتاب الجديد المتحدة،

* ديدري ويلسون، و سبيربر دان، (2016)، *نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل و الإدراك*، (هشام ابراهيم عبد الله الخليفة، المترجمون) دار الكتاب الجديدالمتحدة،

* جاكندوف راي، (1983)، *علم الدلالة والعرفانية*، (عبد الرزاق بنور، المترجمون) تونس: المركز الوطني للترجمة،

* روبول آن موشلار جاك، (2003)، *التداولية اليوم: علم جديد في التواصلي* (الإصدار 1)، (سيف الدين دغفوس، و محمد الشيباني، المترجمون) المنظمة العربية للترجمة،

* أولمان ستيفن، (1973)، *دور الكلمة في اللغة* (الإصدار 3)، القاهرة: مكتبة الشباب،

* آيت أوشن،علي (2000)، ، *السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة* (الإصدار 1)، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب،

* عمر بلخير، (يونيو ، 2013)، السياق في ظل النظريةالمعرفية، *مجلة الأثر، 18*،

* يول ، ج، *التداولية* (2010)، (1 ed) ، (ق، العتابي،Trans) ، دار الأمان، الرباط ، المغرب